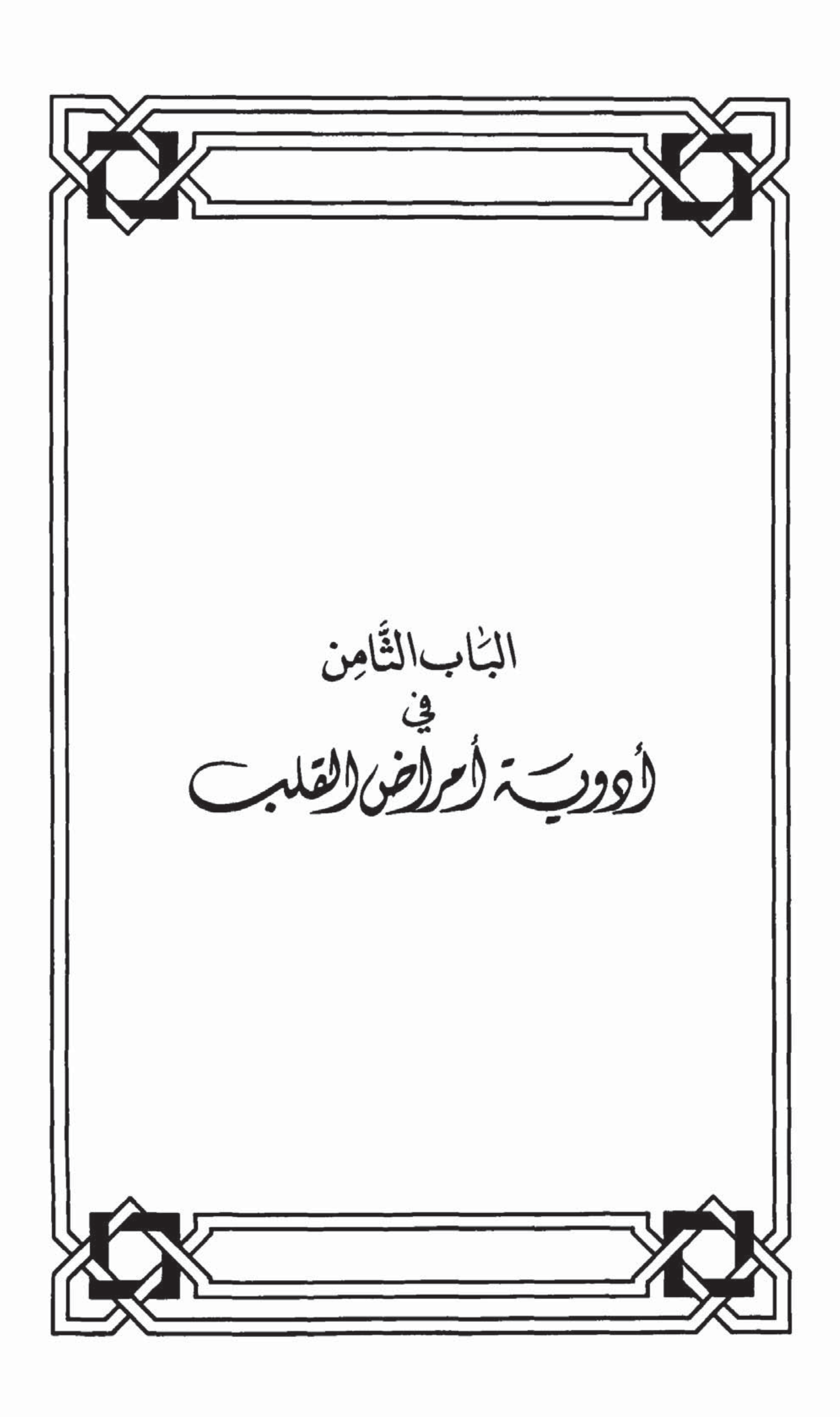


البَاب الثَّامِن

في

أدوية أمراض القلب

الفصل الأول

بيان أمراض القلب

مرض القلب نوعان:

[الأول]: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات.

وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لفساد القلب لا يُحس بالألم، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه، حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده.

وهذا أخطر المرضين وأصعبهما.

وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمّ والغمّ والحَزَنِ والغيظ.

وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب؛ ويدفع موجبها مع قيامها.

وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمراضه التي لاتزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهي التي توجب

له الشقاء والعذاب الدائم، إنْ لم يتداركها بأدويتها المضادة لها.

فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء.

ولهذا يقال: «شفى غيظه» فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائد[١].

فالغيظ: يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شَفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أُخر أصعب من مرض العشق.

وكذلك **الغَمُّ والهم والحزن** أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب، وصح وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر. ولم يزل، وأعقبه أمراضاً هي أصعب وأخطر.

وكذلك **الجهل**: مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضاً إلى مرضه؛ لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبُرْئه.

---

(١) هي: يعذبهم الله، ويخزهم، وينصر المؤمنين عليهم، ويشف صدورهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب على من يشاء.

قال النبي ﷺ في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: (قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا؟ فإنما شِفاء العَيِّ السؤال)[1].

فجعل الجهل مرضاً وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره وحصل له بَرْد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدَى والعلم.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله.

والمقصود أن:

من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية.

ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية.

والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء.

وذلك أعظم مما للبدن وبالله التوفيق.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧)؛ وابن ماجه (٥٧٢)؛ والدارمي (٧٥٢) عن ابن عباس؛ ولأبي داود عن جابر (٣٣٦).

الفصل الثاني

القرآن متضمن لأدوية القلب

[شفاء القرآن لمرض الشبهات]:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي: أمراض الشبهات، والشهوات.

والقرآن شفاء للنوعين:

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوّات، ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بياناً.

[القرآن هو الشفاء الحقيقي]:

فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم:

بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد.

وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئاً.

وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها.

وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي: «لحم جمل غَثٍّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتَقَى، ولا سمين فينتقل»[1].

[تكلّف المتكلمين وتعقيدهم]:

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل أو التعقيد، كما قيل:

لولا التنافسُ في الدنيا لَما وُضِعَتْ
كتبُ التَّناظُرِ، لا (المغني) ولا (العمد)
يحلّلونَ بزعمٍ مِنهُمُ عُقَداً
وبالّذي وضَعُوه زادتِ العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى؛ والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من (مرامهم)[2]، حيث يقول:

---

(١) متفق عليه، (خ ٥١٨٩، م٢٤٤٨)، وهو جزء من الحديث المعروف بحديث (أم زرع).

(٢) هو الإمام الفخر الرازي، المتوفى سنة (٦٠٦هـ).

نهـايـةُ إقـدامِ العقـولِ عِقَـالُ وأكثـرُ سَعْـيِ العـالميـنَ ضَـلالُ
وأرواحُنا في وَحشةٍ منْ جُسُومِنا وَحـاصِـلُ دُنيـانـا أَذىً ووَبـال
ولم نستفدْ مِنْ بحثِنَا طُوْلَ عُمْرِنَا سِوىٰ أنْ جَمعنا فيهِ قِيْلَ وَقَالُوا

لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولاتروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

أقرأ في الإثبات: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة.

وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جداً قد ذكرناه في كتاب (الصواعق المرسلة) وغيره.

وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: آخر أمر المتكلمين الشك وآخر أمر المتصوفين الشطح.

والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

[شفاء القرآن لمرض الشهوات]:

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة،

والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبّاً للرشد، مبغضاً للغي.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن.

وعـادَ الفتـىٰ كـالطِّفـلِ، ليـسَ بقَـابِـلٍ
سِوىٰ المَحْضِ[1] شيئاً، واستراحتْ عواذِلُهْ

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه.

وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يترقى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، وكما أن البدن محتاج إلى أن يرقى بالأغذية المصلحة له والحِمْية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لايزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير، لا يحصل له به تمام المقصود.

وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع وكمل.

ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بدّ من ذكر هذا وهذا، فنقول[2]:

---

(١) المحض: اللبن الخالص.

(٢) مراده ما يأتي في الباب التالي.